

مدينة ميلّة

(التطور التاريخي في العصر الاسلامي الوسيط)

عبدالعزیز فيلاي

معهد العلوم الاجتماعية جامعة قسنطينة

Résumé

Literée au Nord Ouest de Constantine, caractérisée par la sédentarisation précoce de sa population, ancienne ville de la Numidie, ayant fait partie de la confédération, constantinoise de l'ère byzantine, ouverte à l'Islam en l'an 59 de l'hégire (680 après J.C) par Abou Mouhadjir Dinar, qui en fit le siège de son administration et de son commandement militaire, Mila a été pendant deux ans la capitale du Maghreb musulman sur lequel allaient rayonner la culture musulmane et la civilisation arabe qui transformèrent profondément le pays des Kotama et l'Est algérien.

Après l'édification par Abou-Mouhadjer Dinar de la maison des émirs et de l'une des plus vieilles mosquées algérienne, Mila acquit une importance stratégique, économique, militaire, administrative et culturelle qui agrandit son rôle dans la région, augmenta sa dimension démographique et fit d'elle un rôle vers lequel convergaient les hommes de sciences et de culture.

Hélas! Mila ne put rester en dehors des différents courants philosophiques et idéologiques qui marquèrent la région, tels que les kharidjites, les mouâtazila et les chûtes.

Néanmoins, au cours des périodes fatimides et zirides, Mila fut la plus importante ville du pays des koutamas, et de l'est algérien subissant la tutelle administrative de mahdia avant de devenir une zone d'influence des Hammadites de Bejaia.

Après cela, les hafsides accordèrent une plus grande importance à Constantine dont elle devint le prolongement stratégique et dépendant d'elle dans tous les domaines de ses activités socio-économiques, culturelles et même stratégiques et sécuritaires.

ملخص

تعتبر مدينة ميلة , من المدن النوميديّة , تقع في شمال غرب مدينة , قسنطينة , عرفت الاستقرار البشري المبكر , قبل الاحتلال الروماني , وكانت ضمن كنفدرالية قسنطينة في العهد البيزنطي .

فتحها القائد ابو المهاجر دينار , سنة 59 هجرية 680 م , واستقر بها مدة سنتين , اختارها لتكون مقرا لادارته , ومركز لقيادته , وجعلها عاصمة المغرب الاسلامي , لمدة سنتين كاملتين , فصارت مكانا للاشعاع الفكر الاسلامي و الحضارة العربية , في بلاد كتامة والشرق الجزائري .

شيد بها أبو المهاجر دينار , دار اللامارة , ومسجدا , يعد من أقدم المساجد في الجزائر . ومنذ هذه الفترة , ازدادت الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية والعسكرية والادارية والثقافية للمدينة , وتعد دورها في المنطقة واتسع نموها الديمغرافي والعمراني , فأصبحت أم الحواضر , في الشرق الجزائري في عهد الفتوحات وخلال عهد الولاة .

لم تسلم مدينة ميلة , من التيارات الفكرية والمذهبية , التي تعاقبت على المنطقة , كمذاهب السنة والخوارج والمعتزلة والشيعة .

ظلت مدينة ميلة في العهد بن الفاطمي والزييري , من أهم مدن بلاد كتانة والشرق الجزائري , تتبع مدينة المهديّة إداريا وسياسيا , وتحولت في العهد الحمادي , الى منطقة نفوذ حكام مدينة بجاية .

أما بنو حفص , فقد جعلوا مدينة قسنطينة , عاصمة سياسية ثانية لهم فافتكت بذلك قسنطينة الدور الذي كانت تلعبه مدينة ميلة في المنطقة , وصارت هذه الأخيرة , أقل أهمية من السابق , تدور في فلك قسنطينة وتخضع لنفوذ حكامها , وتشكل العمق الاستراتيجي والامن الاقتصادي لها .

المقدمة

المدينة ظاهرة عمرانية قديمة

ظهرت المدن في الشرق الجزائري، كمراكز للتجمعات السكنية، منذ العصور القديمة، في العهد النوميدي، وعلى وجه التحديد، منذ أن عرفت المنطقة الحضارة الفينيقية، في الألف الثانية قبل الميلاد.

و على الرغم من أن المصادر العربية، قاصرة عن إعطائنا، المادة الخبرية، إلا أن الأبحاث الأثرية، و الحفريات، التي أجريت في المنطقة، و كذلك ما تبقى ظاهرا من البؤر الحضرية، في كثير من المدن ببلاد الجزائر عامة، و شرقها على وجه الخصوص.

فقد كان الفينيقيون، و من بعدهم القرطاجيين، يعتمدون على التجارة البحرية، أكثر من الفلاحة "خدمة الأرض" و لهذا كانوا يتجهون نحو البحر و الساحل و يفضلونه على الداخل، لم يتوغلوا فيه الا بالقدر الذي يضمن لهم سلامة مدنهم و محطاتهم التجارية، لعدم توفر لديهم العناصر البشرية و القوة البحرية، للتوسع و الاستيطان، و لذلك كان تأثيرهم على الساحل أكثر من الداخل، و في الجهة الشرقية من بلاد الجزائر أشد من الناحية الغربية.

أما الرومان، فقد أكثروا من إنشاء المدن و الحصون، لأن حضارتهم كانت مبنية، على الإستيطان و الفلاحة، معتمدين على وفرة الجند و الأسلحة، و القدرة العسكرية لحماية مصالحهم و ممتلكاتهم، و توفير أمنهم. و كان اهتمامهم منصب منذ البداية نحو الشرق الجزائري لقربه من عاصمة الإقليم في إفريقية و دنوه من الامبراطورية أكثر من غيره و حاجتها إلى قمح هذه المناطق و زياتيتها و عمل الرومان على تجنب الجبال و الأماكن الوعرة و الصحارى، خوفا من شدة مقاومة أهلها و كثرة إنتفاضاتهم و ثوراتهم.

و لم يتمكن الوندال و البيزنطيون من السيطرة على كل المناطق، التي كان يحتلها الرومان. فأخذ الطابع المدني يتراجع في بعض الأماكن التي هجروها في الشرق الجزائري، و حل محله الطابع الريفي.

فالإحتلال الوندالي و البيزنطي، لم يستمر طويلا بمقارنته، مع الفترة الرومانية، و لم يكونوا يحملون، مشروعا حضاريا إستعماريا إستيطانيا كالذي حملة الرومان من قبل.

فقد خرب الوندال بعض المدن، و أهملوا العديد منها، و تراجع البيزنطيون، نحو الشمال، و إستقروا في المدن الكبيرة، فاصبح الشرق الجزائري، لا يخضع في عمومته إلى الإستعمار البيزنطي، فظهرت فيه ممالك محلية مثل مملكة كسيلة و مملكة الكاهنة قبيل الفتح العربي الإسلامي لبلاد المغرب، و قرى بربرية مرومنة.

و منذ أن بدأ المسلمون يستقرون بشكل منتظم في مدن القيروان و دكرور و تونس، خلال النصف الثاني من القرن الأول الهجري الموافق لنهاية القرن السابع الميلادي، و هي المدن العربية الإسلامية الأولى التي أسسوها في بلاد المغرب، نجد أن الإسلام أخذ ينتشر في المدن و السهول، قبل أن ينتشر في المناطق الجبلية و لا سيما تلك التي تقع على الممرات السهلية، و لهذا كانت الحضارة الإسلامية حضارة مدن لأن المسلمين، لم يستعملوا لفظة حضارة بقدر ما إستعملوا كلمة مدنية و تمدن.

و المدنية في نظرهم، ليست مكانا و بنايات فحسب، بل هي أناس و مجتمع مدني. قام بتخطيطها و تشيد منشآتها الحربية و الدينية و المدنية و هو الذي أكسبها شهرتها.

و عندما ظهرت الدول الإسلامية المتعاقبة على الشرق الجزائري، كالأغالبة و الفاطميين و الزيريين و الحماديين و الموحيدين و الحفصيين أعتمدوا تقريبا على المدن القديمة المتواجدة في المنطقة قبل مجيئهم. أو بنوا على إنقاضها حواضر أخرى، و أسسوا مدنا جديدة كعواصم لهم. و حولوا قواعد قديمة من مدن لاتينية مسيحية إلى مدن عربية إسلامية و هذا ما حدث لمدينتي ميلة و قسنطينة و غيرهما من مدن الشرق الجزائري.

و كان المسلمون يعتمدون في بنائهم للمدينة العربية الإسلامية على شروط معمارية أساسية أهمها:

المسجد الجامع الواقع في وسط المدينة.

السوق الكبير و يقع بالقرب من المسجد.

الأسوار القديمة التي تحيط بالمدينة.

القصبة التي يقيم فيها الأمير أو من ينوبه.

و تركز وظائف سكان المدينة على العمل التجاري و الصناعي و الإداري، فإذا توفرت هذه الصفات و الشروط لكل تجمع سكاني صنفت ضمن المدن الإسلامية و المدن في حد ذاتها، تشيد لوظائف مختلفة منها العسكرية و الإدارية و التجارية و الدينية في العهد القديم، و إستمرت كذلك تحملان نفس الوظيفة خلال العصر الوسيط.

و كان المسلمون يهدفون إلى التعمير، لأنه دلالة إجتماعية و إقتصادية و عسكرية، و حضارية على وجه العموم. و العمران في نظرهم رمز القوة و العظمة و الإزدهار. فقد كانوا يتسابقون إلى التعمير و التشيد و يتنافسون عليه، و هذا هو الدافع الذي جعلنا نختار دراسة مجموعة من مدن الشرق الجزائري في العهد الإسلامي الوسيط، حتى نوضح أهميتها في النواحي الإقتصادية و الإجتماعية، و نبرز دورها في المجال الإستراتيجي و العسكري و نبين وظيفتها الإدارية و الثقافية، و مساهمة سكانها في بناء الحضارة العربية الإسلامية، واثرائها في المنطقة. و تسليط الضوء على التاريخ المحلي للشرق الجزائري و معالجته بمنهجية علمية و أقلام محلية وطنية من قبل ثلة من الزملاء الباحثين في مشروع علمي تاريخي حضاري.

ميلة في العهد القديم

تعتبر منطقة ميلة من المناطق النوميدية العريقة، التي ظهرت في الشرق الجزائري و هي تقع بين جبال لمية و سيدي إدريس من الشمال، و جبال عقرب من الجنوب، و جبال زواغة من الغرب، و تموجات الهضاب العليا من الشرق، و تتخللها مساحات سهلية شاسعة خصبة صالحة للزراعة، و تربية المواشي، و تكثر فيها البساتين، و الحدائق، و أشجار التفاح و الأتجاص لتوفر المياه بالمنطقة و غزارتها.

و يقع مقر مدينة ميلة في شمال غرب مدينة قسنطينة، و لا يبتعد عنها إلا بنحو خمسين كلمترا و هي مسافة قصيرة، لا تشكل عائقا للتأثير الحضاري و التنقل البشري بينهما، و لهذا فمما لا شك فيه أن منطقة ميلة تكون قد عرفت الإستقرار البشري المبكر، و التجمعات السكانية، قبل الإحتلال الروماني لبلاد المغرب كما تدل على ذلك، النقوش اللبية و البونية المزروجة، التي أكتشفت في ميلة (2). و إنها كانت تشتمل على قرى و بوادي تقطنها القبائل النوميدية، و بعض الجاليات البونيقية.

فقد عرفت مدينة ميلة حضارات مختلفة و عناصر بشرية متنوعة إذ سكنها النوميديون و استقروا بها. و على الرغم من عدم توفر المصادر التاريخية، التي تشير إلى عمران النوميديين و إلى مظاهر حياتهم الإجتماعية و الإقتصادية في هذه الحقبة من الزمن فإننا لا نستبعد أن تكون

ميلة تابعة إداريا و سياسيا لمملكة نوميديا و إلى عاصمتها مدينة "سیرتا" و كان سكانها في هذه الفترة لا يختلفون عن سكان العاصمة الإقليمية في العناصر البشرية، و في التنظيم الإجتماعي و الإقتصادي و نمط العيش. و تكون مدينة ميلة قد إستفادت من تأثرت الحضارة النوميدية و البونيقية في نمط البناء العمران، لقربها من سرتا و مجاورتها لها.

و لعل مدينة ميلة كانت قرية صغيرة أو قلعة عسكرية أمامية مع مدينة تيديس، التي عرفت حضارة ما قبل التاريخ لحماية مدينة سرتا عاصمة المملكة النوميدية و مساعدتها في حروبها، و هو الشيء الذي زاد في أهميتها كقلعة عسكرية و مكانة إقتصادية تدافع عن المملكة. و بالإضافة إلى ما ذكرناه، فإن موقع مدينة ميلة في التل و بالقرب من المواني الساحلية و المدن الداخلية جعلها تشكل المحور الذي تتلاقى فيه شبكة الطرق المؤدية إلى عاصمة الإقليم، و التي تعد محطة رئيسية للقوافل التجارية و سوقا عالمية، تستفيد منها المناطق و المدن المجاورة لها (3).

و لعل ما يمكن قوله أن مدينة ميلة تعد من المدن العريقة في الشرق الجزائري، لم يتغير موضعها بتغير المدنيات و الحضارات و العناصر التي تعاقبت عليها. فقد كانت مدينة ميلة مثل غيرها من المدن المجاورة لمدينة سیرتا تدور في فلكها و تعتبر في نفس الوقت الخط الأمامي، و العمق الإستراتيجي لها(4).

و الظاهر أن المدن النوميدية و قراها بصفة عامة، و القرية من سرتا بصفة خاصة كان يسير إدارتها، و يدير شؤونها الإجتماعية و السياسية مجلس على غرار المجالس التي عرفتها مدينة سرتا، و هو نظام (الشوفيت) الثلاث القرطاجي الأصل إبتداء من القرن الثالث قبل الميلاد (5).

كانت مدينة ميلة، تسمى في هذه الفترة "ملو"، و هو اسم فيما يبدو كان يطلق على ملكة ميلية نوميدية قديمة، و يؤكد هذه الفرضية التمثال الذي أكتشف مؤخرا في الحفريات التي قام بها بعض الأثريين في المدينة.

كما عرفت مدينة ميلة أيضا أسماء أخرى مختلفة تدل على أن هذه المدينة قد تداول الحكم عليها كثير من الأمراء، و من أشهر هذه الأسماء ميلاف، ميلوفيثانيا، ميلويوم، ميلوين، ميديوس، ميلا، و ميلة (6).

و عندما فتحها العرب المسلمون، أطلقوا عليها إسم "ملاح" غير أنهم فضلوا إستعمال إسمها القديم "ميلة" و هو تحريف للإسم الروماني "ميلاف" أو تعريب له، و هي ميزة تميز بها

العرب المسلمون بحيث كانوا يستعملون الأسماء القديمة للمدن الرومانية أو البيزنطية، التي يحولونها إلى مدن إسلامية مع تحريف بسيط حتى يسهل عليهم نطقها.

و عندما قام الرومان، باحتلال قرطاج (سنة 148 ق.م) و امتد نفوذهم إلى الديار الإفريقية في إطار المشروع الإستيطاني الذي طبقه بقوة السلاح في البلاد المغرب عامة و المدن الإفريقية، على وجه الخصوص منها مدينة قسنطينة (سرتا) (سنة 112 ق.م).

فمن الطبيعي و الحالة هذه أن يمتد سلطانهم إلى المناطق و المدن التي كانت تتبع قسنطينة و تدور في فلكها، و لاسيما القرية منها مثل ميله و تيديس و بونوارة و غيرها. و صارت مدينة قسنطينة منذ هذا الإحتلال عاصمة لكنفدرالية المستعمرات الأربع (7) التي تجمع تحت لوائها كل من ميله، و القل و سكيكدة، و كان لكل مستعمرة حسب الإدارة الرومانية نظامها الخاص بها في تسيير شؤونها بينما كانت العاصمة الإقليمية مدينة قسنطينة تتولى الدفاع عنها و تعين لها القضاة و الولاة (8).

اهتم الرومان بتخطيط مدينة ميله و تعميرها، فجلبوا إليها المياه، من المناطق المجاورة، كما أنشأوا الدور و القصور و الأبراج و الأسوار، و تشيد شبكة الطرق و المواصلات داخل المدينة و خارجها و ربطها بمدن تقع على الخط الأفقي الممتد منها إلى مدينة قسنطينة شرقا و إلى سطيف في الجنوب الغربي و تأسيس خطوط عمودية أخرى تربطها بالمواني الساحلية في القل و سكيكدة و بجاية و غيرها لأن الرومان جاعوا للإستيطان و الإستقرار و مراقبة سكان الجبال و البوادي المحيطة بمدينة ميله و التحكم في المنطقة حتى تسهل لهم هذه الطرق التدخل السريع لحماية مصالحهم في حالة مهاجمة القبائل النوميديّة و تدعيم أمنهم، المرتبط بسلامة هذه المدن و القلاع و الحصون.

و قد صارت مدينة ميله دائرة للحكم العسكري، و قاعدة هامة لحماية مدينة قسنطينة من الثورات المحلية، و من الهجومات الخارجية.

شيد الرومان ميله من حجارة و صخور الجبال المحيطة بها، كما حفرت بها البار و العيون، و اقيمت بالقرب منها بعض السدود الصغيرة لسقي الحقول، التي إشتهرت بها المنطقة حتى سميت ميله بالمملكة القمح و الألبان (9).

عمل الرومان على نشر الديانة المسيحية في المدينة، خاصة في القرن الثالث الميلادي، حتى صارت معقلا من معاقل المسيحية في المنطقة، و نظرا للأهمية التي أصبحت تكتسبها مدينة ميله، في هذا المجال أختارها رجال الدين و القساوسة لتكون مقرا لمؤتمرين هامين لرجال الدين المسيحي إلتقى فيه أساطين المسيحية و فقهاؤها، فكان المؤتمر الأول سنة 402 ق.م، و إنعقد

المؤتمر الثاني في أواخر سنة 416 ق.م، و قد أشرف على هذين المؤتمرين الفيلسوف النوميدي القسيس سانت أوجيستان شخصيا (10).

بليت مدينة ميله هي الأخرى بالاحتلال الوندالي في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي. كما تعرضت للغزو البيزنطي خلال القرن السادس الميلادي و يبدو أن البيزنطيين جددوا بناء أسوارها و أبوابها و منشآتها العمرانية (11).

و عملوا على إرهاب السكان بالضرائب و المغارم الباهضة و باضطهاد الديني و الاجتماعي مما جعلهم يقدمون برد فعل يحفظ لهم كرامتهم، فأكثرُوا من الثورات و الإنتفاضات ضد الوجود البيزنطي في المدن و القلاع و الحصون و المزارع. غير أن هذه الثورات المتكررة لم تتمكن من إزالة الاحتلال البيزنطي، و إنما زحزحته من بعض المناطق الداخلية نحو الشمال، فتمركزوا في بعض المدن و تحصنوا بها و كثفوا قواتهم فيها، و خاصة في ميله و قسنطينة و قالمة و تبسة و سطيف.

ظلت مدينة ميله تخضع للروم إلى نهاية القرن السابع الميلادي، و هو التاريخ الذي بدأت فيه الطلائع الأولى للجيش العربي الفاتحة تصل إلى ربوع المغرب لنشر الدين الإسلامي الحنيف، و بث الدعوة المحمدية بين سكانه و تحرير شعوب هذه المنطقة من لوثنية و من نير الإستعمار البيزنطي، و إقامة الشريعة الإسلامية و تطبيق مبادئها بين الناس (12).

ميله إبان الفتح العربي الإسلامي

على عكس مدينة قسنطينة التي أهمل المؤرخون و الإخباريون تحديد تاريخ دخولها إلى دائرة العروبة و الإسلام، فإن مدينة ميله كان لها الحظ في ذلك.

فقد خصها المؤرخ المصري أبو المحاسن ابن ثغري بردي (ت 874/1469م) صاحب كتاب "حسن المحاضرة في ملوك مصر و القاهرة"، حدد فيه إسم القائد الذي فتح مدينة ميله و ذكره صراحة و هو أبو المهاجر دينار (55-62/675-681) الذي تقلد إدارة ولاية المغرب و قيادة الجيش فيه، سنة 55/675 من قبل الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان (41-61/661-679م) (13).

و الحقيقة أن المعلومات الخاصة بأصل هذا القائد غير واضحة و إنما يمكن أن نفترض بأنه من أصل مصري كان مولى لمسلمة بن مخلد الأنصاري، و أحد أتباعه و أنصاره إعتق

الإسلام مبكرا، و حارب إلى جانب معاوية بن أبي سفيان ضد علي بن أبي طالب، و أنصاره في مصر، أيام الفتنة الكبرى و قد صرح بذلك مسلمة بن مخلد والي مصر نفسه في إحدى المنسبات بأن أب المهاجر دينار، احد اعوانه الذين ساعدوه و وقفوا الى جانبه في هذه الحرب الاهلية. لعب فيها ابو المهاجر دينار دورا بالغ الأهمية، و لهذا السبب كافأه مسلمة بن مخلد الأنصاري بأن قدمه إلى الخليفة و رشحه لمنصب ولاية المغرب و قائدا لجيوشه، بدلا من عقبة بن نافع الفهري (14).

و الظاهر أن أب المهاجر، بحكم نشأته بالديار المصرية كان مطلعا على أحوال بلاد المغرب، عارفا بطبائع أهله، مدركا لتضاريسه و مسالكه، و ربما هذا هو السبب الذي جعله يتخذ سياسة مغايرة لسياسة سلفه، التي كانت تتسم نوعا ما بالعنف و الصرامة و التصلب من جهة، و الابتعاد عن مراكز التجمعات البشرية في الشمال، فرأى بحنكته السياسية و ببعد نظره أن يقترب من الأهالي، و أن يسلك معهم سلوكا لينا حتى يطمئنوا اليه و بالتالي يعتنقون الدين الجديد، و ينضمون إلى صفوف المسلمين، فيجعل منهم جيشا قويا يكون سندا للإسلام و المسلمين في ضرب الروم و دحرهم و إخراجهم من بلاد المغرب (15).

و لما وصل القائد أبو المهاجر دينار، إلى مدينة القيروان و تسلم الولاية، لم يمكث بها طويلا، بل تحول إلى حيث توجد التجمعات سكانية الكثيفة في إفريقية و إستقر بها. و بنى مدينة أخرى بالقرب من هذه التجمعات و أطلق عليها إسم ذكرور أو تاكروانت كما أشارت بعض المصادر (16).

إستطاع أبو المهاجر بهذه السياسة الجديدة مع أهل المغرب أن ينجح نجاحا كبيرا. إذ تقدم بفتوحاته إلى المغرب الأوسط، ففتح بلاد كتامة (بالشرق الجزائري) (17) متخذا في ذلك طريق التل، الطريق البيزنطي بين مدن تبسة قالمة ثم ميلة. و عندما وصل إلى هذه الأخيرة، حاصرها حصارا محكما و أناخ عند منافذها، و قطع عن أهلها الماء، حتى إستسلموا له فسقطت مدينة ميلة في يده فدخلها أبو المهاجر دخول المنتصر، و إستقر بها سنة 59هـ/680م (18).

و كانت مدينة ميلة محصنة تحصينا قويا بأسوار عالية، و أبراج شاهقة و مدعمة بحامية بيزنطية قوية، و تعد من المراكز العسكرية الرومية الهامة في اقليم كتامة، وهي إحدى المدن الأمامية، لمدينة قسنطينة و إحدى نقاطها الدفاعية و عمقها الإستراتيجي مع جارتها مدينة تيديس، و ربما لهذا السبب أطلق عليها قسنطينة الصغيرة لمجاورتها و قربها لها (19).

و حينما فتح ابو المهاجر دينار مدينة ميلة فضل النزول بها و حول مقر إقامته و إدارة ولايته و مركز قيادته من مدينة ذكرور الجديدة الى مدينة ميلة المفتوحة التي صارت عاصمة

الولاية المغربية لمدة سنتين كاملتين، و هي المدة التي قضاها أبو المهاجر بارض كتامة و حاضرتها، و بالتالي أصبحت مدينة ميله مركزا لنشر الدين الإسلامي و القاعدة التي يدير منها شؤون الولاية و يسوس المنطقة.

و يبعث منها سرايا و الحملات العسكرية للجهاد في المناطق المختلفة من بلاد المغرب الأوسط، ففتح إنطلاقا من مدينة ميله مدينة قسنطينة(20) و تيديس و سطيف و مدن الهضاب العليا و بلاد الزاب إلى أن وصل إلى مدينة تلمسان (21).

و يبدو أن أبو المهاجر دينار، قام بتشيد دار للإمارة بميلة أثناء إقامته بها و مسجدا للمسلمين، أطلق عليه إسم مسجد سيدي غانم (22) بناه على إنقاض كنيسة رومانية تتوسط ثكنة المدينة، كما توضح الحفريات و التنقبات التي قامت بها بعثة وزارة الثقافة سنة 1968م و ان صحت هذه الفرضية فإن مسجد سيدي غانم يعد أول مسجد أسس على أرض الجزائر و يكون أبو المهاجر دينار هو أول قائد عربي مسلم، وطأت أقدامه و أقدم جنده و خيوله بلاد الجزائر كلها من مدينة تبسة شرقا إلى عيون أبو المهاجر دينار بتلمسان غربا (23) و هو الذي إختار مدينة ميله لتكون مقرا لعمليات الحربية في المغرب الأوسط، و نقطة إشعاع للفكر الإسلامي الجديد، و قد أختارها لأنها تقع بين التجمعات السكانية الكبيرة و تتوسط مدن الشرق الجزائري من جهة و المغرب الأوسط و إفريقية من جهة ثانية و طهر بذلك أهل المنطقة من التالوث المسيحي، و اعتقمهم من نير الروم و ظلمهم، و حول مدينة ميله من مدينة بيزنطية مسيحية إلى مدينة عربية إسلامية ما بين سنتي (59/680/61678م/24).

كما إستطاع أن يكسب إحترام أهل المغرب و قبائله بوجه عام و أن يحظى بود قبيلتي كتامة و أوربة البرنسية و شيخوخهما على وجه الخصوص، و كان يتزعم قبيلة أوربة في ذلك الوقت كسيلة الأوربي الذي أنظم إلى صف أبي المهاجر دينار و جنوده، و دخل في دينهم و شارك معهم في السرايا و الحملات التي وجهها أبو المهاجر دينار عبر مناطق المغرب الأوسط إلى أن وصلت إلى مدينة تلمسان و أحوازها غربا (25).

و قد ظل أبو المهاجر يسوس بلاد المغرب بهذه السياسة اللينة المتسامحة مدة سبع سنوات إلى أن عزله الخليفة يزيد بن معاوية سنة 62/681م(26) و أعاد القائد عقبة بن نافع الفهري مرة ثانية واليا على بلاد المغرب، و إفريقية وقائدا للجيش العربية الفاتحة.

و الظاهر أن عقبة لم يلتزم بالسياسة التي رسمها أبو المهاجر، في فتحه لبلاد المغرب، و هي سياسة التقرب من أهل البلاد المفتوحة و إشراكهم في القيادة و إبخالهم في ديوان الجند، مع اخوانهم في الدين من العرب الفاتحين فاستعمل معهم أسلوب الصرامة و العنف، و هي

الطريقة التي تسببت في تعثر الفتح على أرض الجزائر بإستشهاد القائدين الجليلين عقبة بن نافع و أبي المهاجر دينار و نخبة من جنودهما و ضباطهما في تهودة (سيدي عقبة حاليا) بولاية بسكرة على يد كسيلة الأوربي و الروم سنة 64/683 م (27).

و يبدو أن مسلمي مدينة ميله التي كانت مقر قيادة أبي المهاجر قد تأثروا لهذه الهزيمة و لمقتل أبي المهاجر الذي كان له الفضل في دخولهم إلى الإسلام , و القائد عقبة بن نافع و يكونون قد خشوا من سطوة كسيلة و الروم عليهم و عودتهم إلى مدينتهم ميله.

و الظاهر أن كسيلة بعد إنتصاره الخاطف بسیدی عقبة في معركة غير متكافئة صار يتزعم جزءا كبيرا من الديار الإفريقية لمدة خمس سنوات و تقاسم حكمها مع الروم, فكانت له الدواخل بينما كانت للروم السواحل.

و لذلك يمكن القول بأن الحكم الحقيقي في مدينة ميله و إقليمها في هذه الفترة ظل في يد الزعماء المحليين من أهل كتامة, الذين تركهم أبو المهاجر دينار أثناء عودته إلى دكرور سنة 61/680م. لأن المصادر التاريخية التي بين أيدينا لا تشير إلى أن كسيلة قد أعتدى على المسلمين في الحواضر التي كانوا بها, بل عاملهم معاملة حسنة خاصة في مدينة القيروان (28) و كذلك لم تذكر لنا النصوص أن الروم قد عادوا إلى مدينة ميله مرة أخرى, كما لم تؤكد لنا الوثائق أن القادة المسلمين الفاتحين الذين جاءوا بعد عقبة بن نافع قد أعادوا فتحها. و هذا ما يجعلنا نذهب إلى أن المدينة ظلت فعلا تحت الحكم المحلي من مسلمي أهل كتامة إلى أن عم الإسلام بطاح أرضها.

فالنصوص تذكر بأن المسلمين الذين فروا من كسيلة بقيادة زهير بن قيس البلوي نحو برقة, تركوا وراءهم طائفة من البربر تحولت إلى الإسلام فضلا عن العرب الذين بقوا في بمدينة القيروان (29).

فقد حافظ أهل ميله على إسلامهم منذ عهد أبي المهاجر دينار, الذي لم يتوان في تعيين الفقهاء و المعلمين لتعليم السكان الدين الإسلامي و مبادئ اللغة العربية , لغة القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة. فتعلق سكانها بالدين الجديد بعد أن فهموا تعاليمه و مبادئه و معانيه, و تأكدوا من أن العرب المسلمين يختلفون عن الاجناس الغازية السابقة, و إن هذا الدين الذي لا يفرق بين الناس مهما كان مركزهم الإجتماعي أو السياسي أو الإقتصادي إلا بالتقوى هو خير الاديان التي عرفوها من قبل. فانظموا إلى المسلمين, و تسابقوا إلى مناصرتهم. و ان شدة إيمانهم بهذا الدين جعلتهم يحملون رايته, و ينشرونها في باقي المناطق المغربية جنبا إلى جنب مع إخوانهم العرب المسلمين , ثم أخذو يتعلمون اللغة العربية بشغف لأنها لغة القرآن و التعليم

الرسمي ثم بدأوا يبتعدون شيئا فشيئا عن المظاهر التي كانت سائدة قبل الإسلام، و أخذوا يتخلون عن الحضارة البيزنطية و اللغة اللاتينية. كما بدأوا ينسون مع مرور السنوات لغة كتامة، حتى أصبحت اللغة العربية هي اللغة المتداولة حتى الآن (30).

و منذ هذا التاريخ إزدادت الأهمية الإستراتيجية و الإقتصادية و الإدارية و العسكرية لمدينة ميلة، لأنها تقع في الخط الدفاعي الأمامي الإفريقي الذي يمتد من نهر مجردة شرقا إلى نواحي مدينة سطيف غربا (31).

ميلة في عصر الولاة

أنتقل إلى مدينة ميلة في هذا العصر الدور الذي كانت تلعبه مدينة قسنطينة في المنطقة قبل الفتح. و صارت ميلة في وقت قصير مقرا إداريا و عسكريا له أهميته، ملحقا بالقيروان مباشرة دون وسيط يعين عليها عاملا من قبل والي القيروان ليدبر شؤون الإقليم و يجمع من أهلها الضرائب و الجبايات و الخراج و إرسال الفائض إلى بيت مال القيروان (32).

فقد كانت تقيم بمدينة ميلة حامية عسكرية من الشاميين و أخرى من الخراسانيين للدفاع عن المدينة و عن نفوذ السلطة المركزية، و التصدى لهجمات سكان الجبال المحيطة بها، و الذين كانوا يثرون على حاكم مدينة ميلة من حين لآخر و يرفضون دفع الجبايات (33).

لم تسلم مدينة ميلة، مثل غيرها من حواضر إفريقية و المغرب من التيارات الفكرية و المذهبية التي سادت المنطقة في النصف الأول من القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي، إذ سادها المذهب السني، و هو مذهب الأغلبية ثم ظهرت فرق و مذاهب أخرى، إنتقلت من بلاد الشرق مع الفاتحين و النازحين، إلى بلاد المغرب هروبا من السلطة المركزية بدمشق في عهد الدولة الأموية و من سلطة بغداد في عهد الدولة العباسية (34) و لا سيما فرقتي الخوارج الصفرية و الاباضية الذين تمكنوا من إستغلال تآمر الرعية من سياسة بعض ولاة بني أمية في بلاد المغرب، فحدثوا رد فعل قوي ضد بني أمية و عمالهم، و فجروا ثورة عنيفة في المغربين الأقصى ثم الأوسط، و إستقلوا بهما عن الخلافة الأموية سنة 739/122م.

فقد أخذاء هذه الثورة بقيادة ميسرة المطغري ثم خالد بن حميد الزناتي يستشري شيئا فشيئا في الديار المغربية من أقصاها إلى أقصاها، و مجالها يتسع و ينتشر مع مرور الأيام إلى أن وصلت إلى البلاد الإفريقية (35).

ولعل هذا هو السبب الذي جعل عبدالرحمن الفهري أمير إفريقية حينئذ، يقوم ببعض الإجراءات خاصة في سنة 745/131م. و تتعلق هذه الإجراءات بمحاربة الخوارج و التصدي لأفكارهم و مبادئهم و ابعاد خطرهم عن منطقة نفوذه و بدأها بتعيين بعض العمال الأقوياء الأكفاء في المناطق الإستراتيجية و الحساسة في غرب إفريقية، فقلد مصال بن حماد مدينة ميلة (36) فتصدى هذا الأخير للخوارج و حاربهم بعنف حتى إستطاع أن يبعد خطرهم عن المنطقة و عن إقليم نفوذ الفهري و فرض الضرائب على السكان و إجبرهم على دفعها و قد ساعده في تطبيق هذه السياسة الحامية الشامية المرابطة بمدينة ميلة و المستقرة في الناحية الجنوبية الغربية منها حيث توجد التحصينات العسكرية القوية و لعلها قصبة المدينة (37).

و على الرغم من نجاح الخوارج الصفرية في الإستيلاء على المغربين الأوسط و الأقصى و على بعض المناطق في إفريقية و دخولهم القيروان حاضرة الولاية سنة 755/139م بقيادة عاصم بن جميل الورفجومي فكان الخوارج الأباضية لهم بالمرصاد بحيث ثاروا ضدهم، و أخرجوهم من القيروان غوة سنة 758/141م بقيادة أبي الخطاب عبدالأعلى و صارت لهم إفريقية بما فيها بلاد كتامة و عاصمتها مدينة ميلة (38) إلا أن الخوارج الأباضية لم يحافظوا على هذه الإنتصارات و لم يتمتعوا بها و بنفوذهم على بلاد إفريقية طويلا، فقد أزاحهم منها الجيش العباسي بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي سنة 762/144م (39)، و قضى على امامتهم بالقيروان و طرابلس بعد ثلاث سنوات فقط من ظهورها في معركة ضارية نشبت بين الفريقين بشرق طرابلس راح ضحيتها الامام ابو الخطاب نفسه و جملة من خيرة ضباطه و أنصاره، و عادت بعد ذلك إفريقية الى حظيرة الدولة العباسية و عاد إليها ولاتها (40).

و مهما يكن من أمر فإن ما تجدر الإشارة إليه هو أن سكان مدينة ميلة، و من جاورها، لم يعتنقوا المذهب الخارجي فيما يبدو سواء كان المذهب صفريا أو ابازيا خلال سيطرتهم على إفريقية كلها مدة ست سنوات (41).

و على الرغم من وجود بعض الإشارات التي تدل على وجود بعض من اعتنقوا هذا المذهب بالمدينة فإن مذهب الأغلبية هو المذهب السني و ان فقهاء حاربوا غيره بشدة و لا سيما عندما ساء مذهب مالك بن أنس.

و الظاهر أنهم كانوا يؤدون لهم الولاء السياسي فقط في هذه الفترة الزمنية القصيرة و ليس الولاء المذهبي، فالنصوص التاريخية التي بين أيدينا و المصادر المذهبية لا تشير إلى ذلك صراحة فسرعان ما عادت البلاد الإفريقية إلى حظيرة الخلافة العباسية و عاد إليها ولاؤها السياسي و المذهبي.

و في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري الموافق لنهاية القرن الثامن الميلادي، ثار بعض القادة الخراسانيين ضد السلطة في القيروان بقيادة عبدالله بن الجارود المعروف بعبدييه (42) و كانت لهم إنتصارات كثيرة على جند تونس و القيروان و غيرهما من مدن إفريقية و أزالوا بذلك حكم الأسرة المهلبية التي حكمت إفريقية مدة من الزمن زادت عن ربع قرن (43). و كان صاحب مدينة ميلة حينذاك القائد مالك بن المنذر الكلبي الذي لم يتوان في مساعدة السلطة المركزية بالقيروان، فهب لنجدها بجيش كثيف جمعه من أهل كتامة و من حامية ميلة و إتجه به نحو مدينة تونس، فاستولى عليها و مكث بها نحو شهرين كاملين، و كان بهذه المدينة كثير من أصحاب إبن الجارود الثائر فأشار أحد أعوان مالك بمقاتلتهم و اخراجهم من مدينة تونس لكنه لم يكثر بذلك، فخرج أصحاب مالك الى القرى و البوادي و بقي هو مع قليل من جنده بمدينة تونس الذين جاء بهم من مدينة ميلة (44).

و لما سمع ابن الجارود بذلك، تقدم نحو مدينة تونس يريد مالكا فتصدى له هذا الأخير في نحو الفين من فرسانه، فاقتلوا قتالا شديدا و كان النصر فيه لأصحاب إبن الجارود، و عندما أحس مالك بن المنذر بتفوق خصمه عليه، جمع جموعه، و حمل على خصمه حملة قوية و هو يقول

يا موت اني مالك بن امنذر أمسك حسن البيض و السنور

أقتل من صابر و من لم يصبر (45).

فرد عليه ابن الجارود بحركة قوية و هو يردد

مالك بن المنذر اني قتلت رب المنبر

جرعته كأس حمام أحمر فاصبر ستلقاه و ان لم تصبر (46).

و بعد هذه المحاورة تقدم مالك بن المنذر للنزال، فتعرض له رجل من أصحاب ابن الجارود، فقتله، ففرق جيشه و عادت فلوله إلى مدينة ميلة و كان والي طبنة حينذاك يتربص الاحداث عن كثب، و يتتبع أخبار ابن الجارود، و انهزام جيش ميلة بقيادة مالك بن المنذر فتقدم نحو القيروان للدفاع عن السلطة المركزية و ترصد لابن الجارود و عجل بالتصدي له و لجنده، و تمكن من هزيمته فمحا بذلك آثار هزيمة مالك، و تحقق النصر للسلطة المركزية بالقيروان على يديه، و هو الامر الذي فشل فيه زميله صاحب مدينة ميلة (47).

و لعل هذا هو السبب الذي زاد مدينة طبنة حظوة عند أمراء القيروان و تضاعف إهتمامهم بها، في هذه الفترة فاعطوا لحاكمها صلاحيات واسعة و دائرة نفوذ كبيرة و احدثوا تنظيما إداريا جديدا لافريقية فأضافوا إلى بلاد الزاب مناطق و مدن جديدة، بحيث صارت هذه

الولاية تمتد من بسكرة جنوبا إلى أرض كتامة شمالا، و من تخوم المغرب الأوسط غربا، إلى أطراف الأوراس شرقا.

و هكذا صارت مدينة طبنة عاصمة لولاية شاسعة مترامية الأطراف، فأصبحت مدينة ميله ضمن اقليم الزاب و جزءا منه تتبع مدينة طبنة إداريا.

بعد أن كانت تتبع القيروان مباشرة (48) فنقصت أهميتها الادارية في عهد الدولة الأغلبية و تراجعت عما كانت عليه في عصر الولاة (49) و أصبح والي الزاب يعين مباشرة من قبل الخليفة العباسي فقد عين هارون الرشيد ابراهيم بن الأغلب على الزاب سنة 797/181م، و نصب في نفس السنة، محمد بن مقاتل العكي واليا على افريقية (50).

فقد أصبح لمدينة طبنة دور الاشراف و التوجيه الاقليمي في منطقة شاسعة و متنوعة العناصر، و الخيرات و الظواهر الجغرافية (51). و صارت تشتمل على بلاد الزاب، و بلاد الجريد، و قاعدته مدينة بسكرة و الأوراس و حاضرتة مدينة باغاي و الشمال القسنطيني و أرض كتامة و عاصمتها مدينة ميله ثم منطقة طبنة، التي تتأخم اقليم لمسيلة (52). و كان لمدينة طبنة بابان الأول يدعى باب تهودة، و الثاني يسمى باب كتامة.

و يؤكد لنا المؤرخ و الجغرافي اليعقوبي، اتساع رقعة ولاية الزاب بقوله (و مدينة الزاب العظمى طبنة، وهي التي ينزلها الولاة، و بها اخلاط من قريش و العرب و الزاب بلد واسع، فمنه مدينة قديمة يقال لها باغاية حولها قوم بربر عجم، يقال لهم نفزة... بجبل جليل يقال له الأوراس، و مدينة عظيمة يقال لها ميله عامرة محصنة لم يلها وال قط. و لها حصن دون حصن فيه رجل من بن سليم يقال له موسى بن العباس بن عبد الصمد و مدينة يقال لها نقاوس كثيرة العمارة و الثمر و مدينة طبنة مدينة الزاب العظمى و مدينة مقرة لها حصون كثيرة، و مدينة أربة و هي آخر مدن الزاب مايلي المغرب في آخر أعمال بن الأغلب (53).

و يتضح مما سبق أن مدينة ميله أصبحت في نهاية عصر الولاة، مدينة تدور في فلك طبنة عاصمة الزاب في التنظيم الإداري الجديد، الذي أحدثته ادارة الولاية العباسية بافريقية، و كانت الحاميات المرابطة في المدن المشهورة بافريقية مثل القيروان و تونس و طبنة و و ميله من أصول قيسية و يمنية و من بني ربيعة، بالاضافة إلى الجند المحليين من كتامة و غيرها من القبائل المغربية، و من أهل خراسان (54).

ميلة في عهد الأغالبة و الفاطميين

يبدو أن مدينة ميلة ظلت تتبع إداريا إقليم الزاب في العهد الأغلبي، لأن النصوص التاريخية شحيحة في هذا الباب، بل تكاد تكون منعدمة بحيث أهملت الحديث عن دور ميلة في هذه الفترة لا سيما في نهاية القرن الثاني و النصف الأول من القرن الثالث الهجري. و الظاهر أن الأغالبة قد ركزوا إهتمامهم على بلاد الزاب المتاخمة لحدود الدولة الرسمية التي كانت لهم معها مناوشات و بعض الحروب على مناطق النفوذ (55). إن وفرة النقود الإدريسية و العباسية التي إكتشفت في مدينة ميلة، تؤكد لنا كثرة التبادل التجاري، بينها و بين الحواضر الإفريقية و المغربية و المشرقية، و أن موقعها المميز في ملتقى الطرق التجارية الرابطة بين سطيف و قسنطينة، و قربها من المواني الساحلية، دفع بدورها التجارية، و زاد في أهميتها الإقتصادية (56).

و أما الحوار الذي دار بين شيوخ كتامة و أبي عبدالله الشيعي سنة 900/288م فيدل على أن أهل كتامة كانوا يتمتعون في تسيير شؤونهم الدينية بالإستقلالية و إن صلتهم بالسلطة المركزية في القيروان، كانت ضعيفة في عمومها و خاصة مع سكان البوادي و القرى و الجبال، بحيث لا يربطهم بها إلا ذلك الخيط الرفيع المتمثل أحيانا في الدعاء لهم على المنابر، و أحيانا أخرى فيما يدفعونه من الضرائب (58).

و عندما استقر أبو عبدالله مع كتامة في فج الأخبار، و إيكجان أصابه مرض، فنصحته الأطباء بالتنقل إلى مدينة ميلة للعلاج بمياه حماماتها، فدخلها مع رجل من بني سكتان (59) و نزل بالفندق الذي يديره فرجون، مولى موسى بن عباس صاحب المدينة (60).

و لما علم موسى بن عباس بأن أبا عبدالله يقيم عند بني سكتان أرسل إلى شيوخها يطلب منهم تسليمه الداعي الشيعي، لكنهم رفضوا عند ذلك بدأ أمر أبي عبدالله يستفحل شيئا فشيئا، و دعوته تنتشر بين الناس خاصة في فج الأخبار و إيكجان (بني عزيز) و تازروت (61) حتى اتصل خبره بالأمير أبي عبدالله إبراهيم بن أحمد (261-289/876-902م) صاحب إفريقية فكتب إلى عامله على ميلة يسأله عن أخبار هذا الداعي فبعت إليه موسى يقرر من شأنه. و يستصغر من أمره و يستبعد خطره.

لكن إبراهيم بن أحمد لم يطمئن لرد موسى بن عباس، فأوفد ابن المعتصم المنجم، أبي عبدالله الشيعي لمحاورته و اختبار نواياه، حتى يعرف مقصده، و تمكن مبعوث الأمير الأغلبي من لقاء إلى عبدالله، و جرى بينهما حوار معمق، أظهر فيه الداعي الشيعي بلاغة في الجدل،

و شجاعة سياسية كبيرة في الرد و قدرة فائقة في فن الحوار و المناظرة، و بين للمبعوث الأغربي عدم اكثرائه بالسلطة المركزية وبتهدداتها.

و حينما كثر اتباعه، و قويت شوكته، جهر بدعوته، و صار يشكل خطرا على أصحاب الأقاليم، و المدن، الكتامية و الزاب، فتكاثبوا فيما بينهم، يتشاورون في أمر أبي عبدالله الشيعي و ما يدعو إليه و كان من بينهم موسى بن عباس صاحب مدينة ميلة، و علي بن عسلوجة، صاحب مدينة سطيف، و حي بن تميم صاحب مدينة بلزمة (62) ثم اتسعت دائرة التشاور إلى رؤساء قبائل كتامة و وجهائها نذكر منهم فتح بن يحيى المسالتي، و مهدي بن أبي كناوة، رئيس قبيلة لهيصة و فرج بن جيران، رئيس قبيلة إجانة، و أبو تميم فحل بن نوح رئيس قبيلة لطاية، و زيادة المتوسي رئيس قبيلة متوسة. و كونوا بذلك حلفا قويا لمواجهة خطرا أبي عبدالله الشيعي فجمعوا له جيوشا و عتادا، و قسموا هذه الجيوش إلى قسمين:

يتكون القسم الأول من جند المدن و حامياتها (63).

و يتألف القسم الثاني من قبائل كتامة و افخاذها، التي تقطن مدينة ميلة و نواحيها، و انضمت اليهم القبائل التي تسكن بالقرب من مدينة سطيف من أهل كتامة و على رأسهم، فتح بن يحيى المسالتي (65).

و عندما سمع أبو عبدالله الشيعي، بهذا الحلف، و بهذه الحشود، لم يتوان في جمع الأنصار و الأولياء، و انتقل بهم إلى مدينة تازروت، أين أخذ يعد العدة للخروج، لمنازلة الجيشين كل واحد على حدة، و ضرب الواحد تلو الآخر، فهياً من أجل ذلك جيشا ضخما، و تقدم به نحو مدينة ميلة، و قبل وصولها إلتقى بالجيش الثاني المتكون من قبائل، إجانة و لطاية و جيملة و ملوسة و لهيصة و عثمان و اورسة و أهل ميلة فقاتلهم قتالا شديدا حتى هزمهم، ففرقت جيوش القبائل المتحالفة و عاد بعضها إلى مدينة ميلة و الإحتماء بأسوارها و حصونها، بعد أن قتل أحد فرسانها (66).

أما باقي القبائل الأخرى، و على رأسها إجانة، فقد انضمت إلى أبي عبدالله الشيعي و دخلت في طاعته، فتعزز موقفه بهذه القبائل، و زاد عدد أنصاره و لاسيما منها التي كانت تقطن حول مدينة ميلة (67).

استيلاء أبي عبدالله على مدينة ميله

أغتم أبو عبدالله الشيعي، فرصة غياب الأمير الأغلبي ابراهيم بن أحمد الذي توجه إلى جزيرة صقلية سنة 901/289م، لفتح مدينة طرمين الحصينة بجزيرة صقلية (68) التي استعصت على المسلمين الفاتحين في السنوات 276/271/265، فدخلها ابراهيم في آخر شعبان سنة 901/289م، عنوة فهرب منها بعض سكانها عن طريق البحر (69) و بسقوط هذه المدينة، جزيرة صقلية دانت نهائيا للأغلبة (70) ثم عبر ابراهيم إلى ايطاليا، وقاد فيها عدة معارك ناجحة، الا أنه لقي حتفه في آخر ذو القعدة سنة 901/289م (71).

و كان موسى بن عباس، صاحب مدينة ميله، قد أسهم في هذه الغزوة بنصف قواته، من الحامية المرابطة بالمدينة، فكانت من العوامل التي سهلت مهمة أبي عبدالله الشيعي، و أنصاره لدخول المدينة، كما استغل الشيعي فرصة الخلاف القائم بين بني سليم و السناجرة، الذين ينتمون إلى عرب بني ربيعة المعروفين ببني خنزير، من أهل ميله و كان زعيم السناجرة حينذاك هو حسين بن أحمد من وجهاء مدينة ميله و أعيانها. (72)

فقد ذهب حسين، على اثر هذا الخلاف سرا إلى أبي عبدالله الشيعي و حرضه على غزو مدينة ميله، و أطلعه على منافذها و تحصيناتها و أخبره بقلعة حاميتها التي يوجد نصفها في صقلية و كان أبو عبدالله في هذه الفترة في حرب مستمرة مع قبائل كتامة لمعارضة له فكان يخرج إليه من حين لآخر في حرب خاطفة ثم يعود إلى قاعدته بتازروت.

و قد ظل على هذه الحالة أكثر من سنة إلى أن استطاع ان يخضع الكثير منها إلى طاعته و بالتالي، مهد الطريق نحو قلب كتامة و عاصمتها مدينة ميله (73) فزحف إليها في جيش كثيف من اهل كتامة و حاصر ضواحيها و سد المنافذ المؤدية إليها(74)، و ضيق الخناق عليها. و لكن بالرغم من قلة حاميتها لم يستسلم أهلها بسهولة فقاوموا عبدالله الشيعي و صمدوا امام هجماته المتكررة يدفعهم في ذلك حماس فقهاء السنة، و تشجيعهم للقتال، بل اعتبروا قتال الشيعة جهادا في سبيل الله(75).

و كان حاكم المدينة موسى بن عباس يخرج بحاميته إلى خارج اسوار المدينة، فيشتبك مع جيش أبي عبدالله، ثم يعود إلى قواعده المحصنة، و كانت هذه الاشتباكات عنيفة سقط خلالها فحل بن نوح من وجهاء قبيلة الطاية، عند ذلك تراجعت قوات موسى و حلفائه (76) و فضلوا الإحتماء بأسوار المدينة، و المقاومة من داخلها، فتمكن أبو عبدالله الشيعي من التقدم بعد أن استولى على ضواحي المدينة و ارباضها و اناخ على أبوابها.

و عندما تأكد موسى بن عباس و حلفاؤه بأنه من المستحيل الاستمرار في المقاومة للقوة غير المتكافئة طلب من حسين بن أحمد بن خنزير و هو أحد مؤيدي ابي عبدالله الشيعي أن يتوجه اليه, و يلتمس منه الامان لنفسه و لاهل المدينة, مقابل تسليمها له (77) فاستجاب الداعي الشيعي لطلبهم, و امنهم على انفسهم و اموالهم, و دخل مدينة ميله سنة 902/290م. (78)

وكان ابو ابراهيم بن موسى بن عباس, ابن صاحب المدينة, قد تسلل في الليل مع جماعة من كبار المدينة, وفر إلى القيروان ليخبر الامير الاغلبى, بما آلت اليه مدينتهم و أهلها. (79)

أما الكتاميون المناصرون لأبي عبدالله الشيعي, الذين دخلوا مدينة ميله معه, لم يلتزموا بالامان الذى أعطاه الداعي لأهل المدينة و أعيانها, فقتلوا فرج بن جبران, و يوسف بن محمد و وزرة بن نصر, و هم المعارضون للداعي الشيعي من قبيلة اجانة الكتامية, التى ساند اغلب افرادها الدعوة الفاطمية و ناصروها و ربما قتل هؤلاء بايعاز من أحد ابناء عمومتهم و هو ابو زاكي الذى كان يخشى من علو كعبهم و منافستهم له في الحظوة و الرئاسة. أما موسى بن عباس فلم يمس بسوء في هذه الفترة. (80)

قام ابو عبدالله الشيعي, بتعيين والي جديد على مدينة ميله و هو أبو يوسف ماكنون بن ضبارة الاجاني الكتامي, عم أبي زاكي, ثم انصرف إلى تازروت مع انصاره و ترك المدينة في يد رؤساء اجانة الكتامية و في حمايتهم (81), و لما وصل ابو عبدالله إلى قاعدته فضل أن ينتقل الى ايكجان لان تازروت غير محصنة و قريبة من أيدي الاغلبة و حمل معه اموالا ومؤنا كثيرة (82).

و كان الامير الاغلبى, ابو العباس الثاني (289-902/290-903م), قد جهز جيشا كبيرا بقيادة ابي عبدالله بن الاحول, بن الامير ابي العباس ابراهيم بن أحمد, و وجهه الى مدينة تازروت, يريد الداعي الشيعي, فوجدها خالية من السكان, فأمر باحراقها و تلم اسوارها و تخريب حصونها ثم مضى الى مدينة ميله, فوجدها هى الاخرى خالية فقد فر أهلها خوفا من الجيش الاغلبى فعسكر ابن الاحول بها, و سكن الفندق الذى كان يملكه موسى بن عباس, قبل أن يجد السير, الى ايكجان حيث يوجد ابو عبدالله الشيعي و انصاره. (83)

و في صبيحة اليوم التالي, استأذن ابو ابراهيم بن موسى بن عباس, ابن الاحول في الخروج الى كجارمة, لاحضار جثة والده منها, و نفيه بمقبرة ميله, و عندما وصل الى المكان الذى يوجد فيه قبر والده وجده خاليا (84) و بينما كان يستخرج الجثة, و اقبلت عليهم كوكبة من

فرسان كجارمة، فقاتلهم قتالا شديدا، الى ان قتل ابو غغال بن ابي ابراهيم بن موسى، و كان فارسا قويا، و قائدا ماهرا من ميلة عارفا بفنون الحرب و بقواعدها (85)، ثم عاد ابو ابراهيم بعدها الى مدينة ميلة.

و كانت كتامة المساندة لابي عبدالله الشيعي تتربص بابن الاحول، و فجأة وجد نفسه محاطا بجيوشها و قواتها من جميع الجهات، فقاتلهم في النهار، ثم تسلل في الليل من مدينة ميلة المحاصرة و فر متسترا بالظلام، نحو جيملة، و منها الى تونس، تاركا وراءه أغلب جيشه في مدينة ميلة فريسة في يد أهل كتامة من انصار ابي عبدالله الفاطمي، و لما سمع هذا الاخير بانتصار أصحابه جاء الى المدينة يهنئهم، و يؤدب من عارضه و خلع طاعته فاستطاع أن يقضي على جيوب المقاومة بها، و اعاد المنطقة الى نفوذه، و رجع أهل كتامة الى مواطنهم، و أهل ميلة الى مدينتهم حسب تعبير صاحب افتتاح الدعوة (86).

لم يهدأ لزيادة الله الاغلي (290-296/903-909م) بال، و لم يقر له قرار بسماعه لهذه الهزيمة الثقيلة التي مني بها جيشه، و بضياح مدينتي ميلة و سطيف و ارض كتامة و خضوعها للداعي الفاطمي، و عزم على تأديبه، فجيش الجيوش و نظم الحشود، و جند القبائل، و اوسع عليهم العطاء و الاقطاعات، الى ان اجتمعت له قوة كبيرة قدرت بنحو أربعين الف مقاتل. جعل عليها القائد ابراهيم بن حبشي (87)، و ارسله الى أرض كتامة، و بعث معه احمالا كثيرة من الاموال، لانفاقها على الانتصار و المؤيدين، و عندما وصل الى بلاد كتامة أنظمت اليه بعض قبائلها، و لحقت به بعض قبائل بلاد الزاب (88)، فتوجه بهم نحو مدينة قسنطينة، و استقر بها ستة اشهر كاملة (89)، وجه منها عدة حملات، الى القبائل المناوئة بالمنطقة فأخضعها، و ارسل الى صاحب طبنة شبيب بن ابي شداد، يطلب منه الانضمام الى قواته، و تشير بعض النصوص التاريخية الى ان جيش ابن حبشي بلغ عدده نحو مائة الف مقاتل (90).

مكث القائد ابن حبشي بمدينة قسنطينة عدة شهور، ينتظر قدوم الداعي الفاطمي الى نواحي ميلة و قسنطينة، لكن ابا عبدالله لم يبادر بخروجه و لم يغامر بجيشه، عند ذلك توجه ابن حبشي نحو مدينة ميلة، وفي موضع يعرف بكينونة بالقرارم (قرب مدينة ميلة)، و تصدى له ابو عبدالله الشيعي، فاشتبك الجيشان في معركة شديدة، كانت الدائرة فيها على جيش ابن حبشي، فانهمز هزيمة ثقيلة، غنم خلالها اصحاب الداعي الشيعي ما كان بحوزة الجيش الاغلي، و قتلوا العديد من افراده (91)، و كان ذلك سنة 292/904م.

فعاد ابن حبشي بمن تبقى معه، الى القيروان يجر وراءه نيول الخيبة، على الرغم من التحضير الجيد لهذه المعركة فانه قد انهزم . و تعتبر معركة كينونة هذه فاتحة إنتصارات

الحاسمة للفواطم، تلتها الانتصارات عديدة في بلاد كتامة، و بلاد الزاب و افريقية، الى ان كان لابي عبدالله النصر الكبير بدخوله مدينة القيروان، و رقادة العباسية و تونس في افريقية و اسقاط الدولة الاغلبية سنة 908/296م. (92)

و لما تربع عبيد الله المهدي على عرش افريقية، واستلم زمام الامور بها، أخذ يعمل على تركيز السلطة في يديه، و يبعد كل من يشك فيه، ثم بدأ يرتاب من ولاء ابي عبدالله الشيعي، صانع ملكه، و صاحب انتصاراته، و كانت النتيجة في النهاية ان اقدم على قتل ابي عبدالله و اخيه ابي العباس سنة 910/298م، فثارت ثائرة أهل كتامة، و خلعوا طاعة الخليفة الفاطمي، و قدموا على انفسهم غلام حدث يعرف بالمارطي، و اسمه كادو بن معارك (93)، و زعموا انه المهدي المنتظر، و نحلوه النبوة و قالوا بأن الوحي ياتيه و نصب له الدعاة كدعاة المهدي و ذكروا بأن أبا عبدالله لم يموت، فالتف حولهم، عامة كتامة، معتقدين بذلك، ثم نهضوا الى مدينة ميلة، و رحفوا عليها، و استولوا على ذخائرها و مكثوا بها بعد ان طردوا واليها منها (94) أخذ أمر هؤلاء الثوار ينتشر، و امرهم يقوى في أرض كتامة و يزداد، و امتد نفوذهم الى بلاد الزاب، فانظمت اليهم بعض القوات الكتامية، التي تعمل في جيش عبدالله المهدي، فسير اليهم الخليفة المهدي ابنه ابي القاسم، و ولى عهده، في جيش كثيف استطاع به ان يعيد الهدوء، الى مدينة ميلة و غيرها من مدن بلاد كتامة و الزاب، و ان يسترجع نفوذه عليها، و ان يطرد سكان مدينة ميلة، و تهجيرهم نحو السواحل الشمالية، و قتل منهم عددا كبيرا، و أخذ الغلام المهدي الى مدينة المهدية و قتله. (95)

ميلة في عهد الزييريين و الحماديين

عندما عزم الخليفة المعز لدين الله الفاطمي (342-365/953-975) على الانتقال الى الديار المصرية سنة 971/361م، اجتمع بشيوخ كتامة، و برؤسائها، و استشارهم في الامر، و اخذ يختبر مدى ولائهم له، ان هو غادر ربوع بلاد المغرب و افريقية، و عرض عليهم الولاية، فاشتروا عليه شروطا، منها عدم دفع الضرائب، و التصرف في اموال الجباية بحرية و ان يكون لهم استقلالية القرار في كثير من الامور، فرفض المعز شروطهم و رأى فيه خروجاً على طاعته، و استدعى بلكين بن زييري، و امتحنه هو الآخر، ففاز بولاية المغرب.

و لعل هذا هو السبب، الذي جعل كتامة لا تخضع للزييريين بعد ذلك، و ان ولاءها لهم ظل ضعيفا، لانها كانت ترى بأنها أحق بالولاية من صنهاجة، فهي التي اقامت صرح الدولة

الفاطمية، و هي التي شيدت أركانها في بلاد المغرب، بأموالها، فلذات أكبادها، و هي صاحبة الفضل في انتصاراتهم في مصر و الشام، و صناعة مجدهم بالشرق و المغرب، فهذه الاعتبارات فيما يبدو كانت كتامة تتور من حين لآخر، ضد الحكم الزيري في بلادهم، و ترفض الانصياع و الخضوع لهم، و كانت مدينة ميلة هي المركز الرئيسي لثورتهم و انتفاضاتهم، و خروجهم ضد السلطة المركزية في المهديّة. (96)

فقد قام سكان مدينة ميلة سنة 988/378م، بثورة ضد العاهل الزيري المنصور بن ابي الفتوح (373-984/387)، و امتنعوا عن دفع الضرائب، فزحف اليهم صاحب افريقية بجيش كبير أربع أهل كتامة، و حينما اقترب من مدينة ميلة خشي أهلها من بطش المنصور، فخرجت النساء و العجزة و الاطفال، كما تشير الرواية يتوسلون و يتلطفون، فأوقف المنصور الزحف، عندما رأى ذلك المنظر المؤثر، و اعطى أوامره، بأن لا يمس أحد بسوء من أهل المدينة، و لكنه اتخذ قرارا صارما و صعبا في نفس الوقت، بتهجير السكان و طردهم الى مدينة باغاي بالقرب من خنشلة الحالية (97)، فخرج الجميع متوجهين الى منفاهم، حاملين معهم ما قدروا عليهم من الأمتعة و الأموال و المؤن، و من سوء حظهم فقد تعرض لهم في الطريق ماكس بن زيري الصنهاجي، و جنوده، فأخذوا جميع ما كان معهم من الاموال و المتاع، و بقيت مدينة ميلة خرابا خالية من السكان فترة من الزمان، ثم عمرت بعد ذلك مرة أخرى و بني حولها سور صخري و جامع و اسواق و حمامات و قصور و بيوت (98)، و هي المرة الثانية التي يهجر فيها سكان مدينة ميلة.

و الظاهر أنه منذ هذا التاريخ، بدأت مدينة ميلة تفقد أهميتها الادارية و العسكرية في المنطقة و صارت تخضع لحاكم مدينة قسنطينة، و هو ابو زعل الذي اصبح حاكما عاما على ارض كتامة و أهلها، و لكن نفوذه على ميلة لم يدم أكثر من سنة واحدة، فقد نهض ضده السكان بقيادة ابي فرج الكتامي، و ثاروا على الحاكم القسنطيني، و انتصروا عليه في معارك حاسمة، و خلعوا طاعته و تولوا شؤون مدينتهم بأنفسهم (99)، غير ان المنصور كان لهم بالمرصاد، مرة أخرى، فعاد الى المنطقة، و اخضع كتامة بالقوة، و قضى على عصيانها، و ارسل حامية عسكرية صنهاجية، و اسكنها مدينة ميلة حتى يتمكن من التحكم في أهلها، و مراقبة المنطقة و الكتامية كلها، و يدير شؤونها، و عين عليهم عاملا للخراج. (100)

و إذا كانت السنوات الاخيرة من القرن الرابع الهجري الموافق للعاشر الميلادي، بالنسبة لمدينة ميلة، هي فترة اضطراب و اضمحلال و ضعف، بحيث اقل نجمها و تقلصت أهميتها، بتعرضها الى ضربات السلطة المركزية. فان القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي،

بدأت تنتعش فيه هذه المدينة، و تتطور و تزدهر، بتطور عمرانها و ازدياد عدد سكانها، و باهتمام الولاة و الامراء بها فعادت لها أهميتها الادارية و وزنها في المنطقة و صارت مقرا رئيسيا للحاكم الحمادي، تتبع مدينة بجاية عاصمة بني حماد حينذاك.

و اصبحت من الاقاليم التابعة للدولة الحمادية في نهاية القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي. (101)

و كان بنو هلال قد حاصروها في هذه الفترة عدة مرات و هاجموها، الا أن سكانها صمدوا لهذه الهجومات و قاوموهم و تصدوا لهم، بكل قوة و عناد و ردوهم على اعقابهم فلم يتمكن هؤلاء الاعراب من دخول المدينة، و اقتحام اسوارها، و انما استطاعوا السيطرة على الاقاليم و الجبال المحيطة بها (102). و كانت قبائل بني هلال الزاحفة على افريقية قد استولت على معظم ممتلكات الدولة الزيرية و اراضيها حتى انحصرت نفوذها و سلطتها الى السواحل الشمالية. و كان الصراع على أشده بين حماد (398-419/1007-1028م) و المعز بن باديس (406-453/997-1015م)، على اراضي كتامة في غرب افريقية، وقد استطاع المعز أن يعيد نفوذه الى سطيف و تيجيس و ميلة و قسنطينة، سنة 999/408م. لكن سرعان ما استرجع حماد الصنهاجي هذه المناطق و المدن الى املاك دولته خلال القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي. (103)

و قد ساعد تغلب القبائل العربية على أغلب اقاليم الدولة الزيرية، الدولة الحمادية، في مد نفوذها، و توسيع رقعتها الى أن وصل الى بسكرة في الجنوب الشرقي (104)، و مدينة تونس في الشمال الشرقي. (105)

و حسبني هنا ان اتعرض الى بعض ما ذكره الجغرافيين و الرحالة المسلمين في وصف مدينة ميلة في هذه الفترة، حتى تتضح لنا أهميتها في المجالات المختلفة، فقد وصفها البكري بقوله " عليها سور صخر اليوم، و حولها ربض و بها جامع و اسواق و حمامات و المياه تطرد حولها سكنها العرب و الجند المولدون، و هي من غرر مدن الزاب، و تسير من مدينة ميلة الى مرسى الزيتونة و هو جبل جيجل". (106)

و قد قال عنها الادريسي بأنها "حسنة كثيرة الاشجار ممكنة الثمار، و فواكهها كثيرة، و محاسنها ظاهرة و مياهها غدقة، و اهلها اخلاط البربر جملة، و العرب تحكم بخارجها، و كانت في طاعة يحيى بن العزيز، صاحب بجاية". (107)

و تحدث عنها صاحب الاستبصار د ت ف (12/6م) بقوله "مدينة ميلة مدينة ازلية، فيها بعض آثار للاول تدل على أنها كانت مدينة كبيرة، و هي الآن عامرة أهلة كثيرة الخصب،

رخيصة السعر، على نظر واسع و قرى عامرة، و ميلّة كثيرة الاسواق و المتاجر عليها سور صخر جليل من بناء الاولين، و في وسط المدينة عينا خراصة عذبة من بناء الاوائل لها سرب كبير يدخل فيه، فلا يوجد له آخر....و بالقرب من ميلّة جبل العنصل يسمى اليوم جبل بني زلدوي، و هم قبائل كثيرة من البربر، سكنوا بذلك الجبل، و لهم خلاف كثير على الولاة، بسبب منعه جبلهم، و فيه مدن و قرى كثيرة، و هو اخصب جبال افريقية، و فيه جميع الفواكه، من التفاح الجليل و السفرجل، الذي لا يوجد مثله في بلد و الاغاب كثيرة". (108)

و يتضح مما سبق ان مدينة ميلّة في العهد الحمادي، كانت تتمتع بنهضة اقتصادية، و نشاط تجاري دؤوب، ساعدها في ذلك الاراضي الزراعية الخصبة المحيطة بها و البساتين الغناء الخضراء الكثيرة، التي تحتوي على اسجار التفاح و الاتجاص و الاغاب و الزيتون، و مختلف المحاصيل الزراعية، بالاضافة الى أنها تقع في ملتقى الطرق التجارية التي تربطها بالمدن و الحواضر الافريقية الاخرى، الداخلية منها و الساحلية، مثل مدينة قسنطينة و سطيف، و طبنة و نقاوس و تيجيس، و جيجل و القل، و سكيكدة، و بجاية، و غيرها، و كان سكان الجبال المحيطة بها لا يخضعون في كثير من الاحيان الى والي المدينة، و انما كانوا يثورون عليه في كثير من الاحيان رافضين دفع الضرائب، و الخضوع الى سلطته.

ميلّة في عهد الموحيدين و الحفصيين

تمكن عبدالمومن الموحيدي (524-558/1130-1163م)، من توسيع رقعة دولته نحو المغرب الاوسط ثم افريقية سنة 1153/546م، و بسط نفوذه و سلطانه، بقواته العسكرية على الحواضر المغربية الكبرى مثل تلمسان و ندرومة و الجزائر، و الحواضر الافريقية مثل بجاية سنة 1153/546م. (109) التي دخلها على حين غفلة، و لا يستبعد ان يكون قد توجه الى مدينتي سطيف و ميلّة، قبل استيلائه على مدينة قسنطينة سنة 1154/548م. و التي طرد منها حاكمها الحسن و اخاه يحيى بن عبدالعزيز الحمادي و الذي لجأ اليها بعد سقوط مدينة بجاية عاصمة بني حماد (110).

ثم انتقل الى مدينة غابة، و واصل زحفه الى مدينة تونس و مدن افريقية اخرى، الى أن دخل مدينة المهدية سنة 1161/555م، و اخرج منها النورمان.

ولعل مدينة قسنطينة كانت في هذه الفترة ذات أهمية معتبرة، و ان دورها كعاصمة للقليم، بدأ يعود اليها بالتدريج، و بالتالي صارت ميلّة في درجة أقل منها، اداريا و عسكريا،

و لكنها ظلت عمقا، استراتيجيا لها و نقطة دفاع أساسية أمامها. و ان انعدام الوثائق و المصادر التي تبرز أهمية مدينة ميلّة جعلنا نفترض ان دورها لم يكن بارزا في عهد الموحدين، غير انها تكون قد تأثرت بالاحداث الكبرى التي جرت حولها و لاسيما في مدينة قسنطينة. كالحروب التي قادها بنو غانية ضد الموحدين.

و كان سكان مدينة قسنطينة وفاقاؤها بصفة خاصة، قد استقبلوا ابن تومرت اثناء عودته من المشرق و رحبوا به، و اخذوا من دروسه و فتاواه، و كان يلزمه وقت اقامته في مدينة قسنطينة، أحد شيوخ مدينة ميلّة، و أحد فقهاءها. (111)

و مهما يكن من أمر، فلجدير بالذكر، هو ان مدينة ميلّة، ظلت تخضع للحكم الموحيدي، اكثر من سبعين سنة، و لما توفي الحاكم يعقوب المنصور الموحيدي سنة 1198/564م، و هو احد الحكام الاقوياء في الدولة، تم هزيمة المسلمين الاندلسيين في معركة العقاب، أمام المسيحيين الاسبان سنة 1212/609م، اخذ الضعف يسري في جسمي الدولة الموحدية، و لم تلبث بلاد المغرب ان انقسمت في النصف الاول من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، الى ثلاثة دول هي:

1 / الدولة الحفصية، اقامها الحفصيون سنة 1227/625م، و جعلوا عاصمتها مدينة تونس.

2 / الدولة الزيانية، أو العبد الوادية أسسها بنو عبد الواد، بالمغرب الاوسط، سنة 1235/633م و اتخذوا من مدينة تلمسان قاعدة لهم.

3 / الدولة المرينية، انشأها بنو مرين سنة 1267/668م، و جعلوا مدينة فاس حاضرة لهم، و كانت ميلّة تقع في الاقليم الافريقي التابع للدولة الحفصية، اداريا و سياسيا، فقد استطاع ابو زكريا يحي الحفصي الهنتاتي (625-647/1228-1249م) ان يستولى على بلاد كتامة و حواضرها سنة 1231/628م (113) و اصبحت مناطق و مدن الشرق الجزائري تخضع للنفوذ الحفصي، و صارت مدينة قسنطينة العاصمة الثانية، بعد تونس يعين عليها ولي للعهد، أو احد امراء بني حفص، يكون نائبا للسلطان، و كانت مدينة ميلّة في هذه الحقبة من الزمن من المدن التي تدور في فلك العاصمة الثانية و تتبعها مباشرة و ان اميرها هو الذي يعين العامل على ميلّة، و تكون قد استفادت هي الاخرى من الحضوة الجديدة التي تتمتع بها مدينة قسنطينة من جهة و بحكم موقعها الذي يتوسط بجاية و العاصمة الثانية للدولة من جهة ثانية.

فقد كانت مدينة ميلة تتعرض الى هجومات القبائل العربية و لا سيما في القرنين السابع و الثامن الهجريين، الثالث عشر و الرابع عشر الميلاديين، و استقرت بها. كما كانت قبائل بني هلال تسيطر على الارياف المحيطة بها. و ان الجيوش الغازية لمدينة قسنطينة كانت تمر أولا بمدينة ميلة، قبل أن تحاصر مدينة قسنطينة (114)، خوفا من حاميتها و قوتها لموقعها القريب من قسنطينة الذي يساعد على سرعة الامدادات و النجدة من خلف الخطوط.

تأثرت ميلة بالاحداث التي كانت تدور في مدينة قسنطينة، فعندما قام السلطان ابو عصيد (694-708/1295-1309م)، بغزو الناحية الغربية للدولة و اخضاع ثغورها الى نفوذه سنة 1295/625م و لا سيما منها مدينتي قسنطينة و بجاية، فقد استقر بمدينة ميلة عدة ايام قبل عودته الى مدينة تونس (115).

و لما قام السلطان ابو يحيى او بكر (718-748/1318-1346م) بغزو مدينة بجاية و تخليصها من يد المرينيين، بعث اليه المنصور بن مخلوف شيخ بني يابان المريني، صاحب بجاية حينذاك، بجيش حاربه حتى هزمه، فعاد السلطان الحفصي الى مدينة قسنطينة، فقتله الجيش المريني الى مدينة ميلة التي دخلها غوة، ثم انتقل منها لحصار مدينة قسنطينة، و عندما لم يقو على دخولها، عاد الى مدينة بجاية (116).

و في سنة 1355/757م، عين السلطان ابو عنان (749-759/1348-1358) وزيره عبدالله بن علي واليا على بجاية ففشل الوزير في الاستيلاء على مدينتي ميلة، و قسنطينة فعزله السلطان من منصبه، و خرج بنفسه الى افريقية لتأديب أهل ميلة و محو آثار الهزيمة، و لعل هذه الهزيمة هي التي دفعت بالسلطان ابي عنان الى خروج بنفسه لرد الاعتبار الى جيشه و الاستيلاء على مدينتي ميلة و قسنطينة اللتين استعصتا على وزيره.

توجه ابو عنان نحو افريقية في جيش كثيف و في الطريق انضمت اليه كثير من القبائل العربية و المغربية المحلية مثل الدواودة، و سدويكش، فزحف بهم الى مدينة قسنطينة و حاصرها حصارا محكما، و حاول خلالها الحاجب نبيل، فك الحصار، الا أنه هزم في الاخير بعد سبعة أشهر من النزال و القتال، و بعد ذلك رجع الجيش المريني الى مدينة ميلة، و استقر بها للاستراحة سنة 1349/758م. (117)

اراد السلطان الحفصي ابو العباس (750-751/1349-135م) ان يبعث بسفارة الى العاهل المريني لتوثيق الصلة بينهما، فتوجهت نحو بلاد المغرب الاقصى، و لكنها حينما بلغت مدينة ميلة، وردت اليها الانباء بوفاة السلطان ابي العباس، بتونس فكف افراد السفارة عن السير، و رجعوا من مدينة ميلة الى مدينة قسنطينة و استقروا بها. (118)

و عندما عزم السلطان ابو حمو موسى الزيانى الثانى (760-791/1359-1389م) على العودة الى تلمسان لاهياء دولة آبائه و اجداده التى قوض أركانها بنومرين عدة مرات, فانطلق من افريقية, تدعّمه بعض القبائل العربية و المغربية و بمساعدة الدولة الحفصية نحو مدينة قسنطينة التى يوجد بها السلطان ابو عنان و حامية كبيرة من المرنيين, و قبل أن يصل اليها سمع بأن ابا عنان قد خرج منها, عائد الى بلاده, عند ذلك غير ابو حمو موسى الثانى أعنه خيوله نحو مدينة ميلة, سنة 1357/758م (119). فاستولى عليها و دخلها في موكب رسمي رائع ثم سار منها الى مدينة ماء سمارة (عين سمارة حاليا), فدخلها هي الاخرى دخول المنتصر, و كما قال الشاعر:

جنحوا الى السلم التى سلموا بها لما انبرى ليث الشرى ليصولا
و توهموا شهب النجوم اسنة و تخيلوا لمع البروق نصولا
حملوا شروطا لم تكن محمولة لكن من خاف استخف ثقيلًا

انتقل ابو حمو الزيانى الثانى الى بلاد, و منه نحو سجلماسة ثم عرج الى مدينة تلمسان عاصمة بن زيان, ففتحها و طرد منها بن مرين, و اعاد بناء دولة آبائه و اجداده بن زيان سنة 1359/760م. (120)

توجه السلطان الحفصي ابو عمر و عثمان (839-893/1435-1488م) الى مدينة بجاية و في اثناء الطريق سمع بأن أهلها يريدون مبايعة ابي بكر عبدالمومن, و هو برفقته في المحلة, و لما وصلوا الى مدينة ميلة أمر السلطان بالقبض على ابي بكر و إعادته الى مدينة تونس سنة 859هـ /1455م. (121)

و هكذا كانت مدينة ميلة, تتأثر بالاحداث الكبرى التى تدور في المنطقة و خاصة في مدينتي قسنطينة و بجاية, و أنها كانت تتبع الدولة الحفصية, و تدور في فلك مدينة قسنطينة, فالظاهر أن امراء قسنطينة هم الذين كانوا يعينون ولاية مدينة ميلة في العهد الحفصي, لتسيير شؤونها السياسية و الاقتصادية, و جبي الضرائب من أهلها و قد بلغ خراج مدينة ميلة في القرن التاسع الهجري, الخامس عشر الميلادي, كما حدده حسن الوزان, زهاء اربعة آلاف دينار, و كان عدد سكانها يبلغ نحو خمسة عشر نسمة, يسكنون نحو ثلاثة آلاف منزل. (122)

و كان سكان هذه المدينة كثيرا ما يخرجون عن طاعة أمرائهم, و يقومون بقتلهم
لقسوتهم, في كثير من الاحيان, و يمتنعون عن دفع الضريبة, و قد ظلت مدينة ميلة على
هذه الحال, الى أن دخلها الأتراك خلال القرن 90 (16) م فصارت تتبع أيضا مدينة قسنطينة و
بقيت كذلك في عهد الاحتلال الفرنسي للجزائر, الى أن أصبحت عاصمة الولاية في التقسيم
الإداري الجديد في الثمانينات من القرن العشرين.

الهوامش و الحواشي

ناصر محمد جوانب من الحياة الاقتصادية و الاجتماعية للمغرب في العصر الوسيط, ص 239
نفسه ص 24

جمال الدين الشّال مدينة الاسكندرية

(1) حسن الوزان وصف افريقيا, ج, و عن لفظة ميلّة فيعني التفاحة, اما كلمة ميلوف, فتعني الف
ينبوع.

(2) انظر خريطة لتوزيع النقوش اللبية و البونية عبر الشرق الجزائري ضمن بحث تعدده السيدة
دحو غير منشور خريطة A

(3) فيلالي لعروق, مدينة قسنطينة, ص 15

(4) نفسه ص 18

(5) فتحة فرحاتي نوميديا من حكم الملك جايا, حتى الاحتلال الروماني ص 197

(6) ميلّة عبر العصور, دليل لجنة افراح بلدية ميلّة, ص 7

7) Mercier(E): Histoire de CONSTANTINE 1902 P42

8) IBID PP.25.28

(9) خصائص مدينة ميلّة, مطبوعة بالولاية, ص نفسه ص 15

(10) نفسه ص 5

11) Bourouiba (R): L Architecture militaire de l algerie Medievale O.P.V ALGER
1983 PP.33.37

(12) و حول مدينة ميلّة في العهد القديم انظر

Gsell (S): Texte explicatif des planches de delamare Atlas Archeo-logique F. 11
N 59.

Delamare: Exploration Archeologique de delamare Atlas Archeologique F.11 N 59.

Lassus (Y): Fouilles a Mila libyca. T.IV4. 1959. PP.199.239

Reboud (V) et Gayt (A): Exursions, Archeologiques dans les endes Milah et de
Constantine R.S.A.C.T.XX 1879 - 1880.

Gambuzat (PL): L evalution des cites du Tell en Ifrikya du

S.O.P.U. Alger, P166

- (13) يسميه ابن عبد الحكم بعبد الانصار, انظر فتوح افريقية والاندلس, ص 70
- (14) ابن عبدالحكم المصدر السابق, ص 68 المالكي رياض النفوس, ص 21
- (15) عبدالواحد طه الفتح و الاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا و الاندلس, ص 124-126 المالكي رياض النفوس, ص 20-21 ابن عذاري البيان ج 1 ص 22
- (16) الواقدي فتوح افريقية, ص 115-120
- (17) ابن ثغري بردي النجوم الزاهرة, ج 1 ص 152 السلاوي الاستقصا, ج 1 ص 80
- (18) ابن ثغري برديالمصدر السابق ج 1 ص 152 عبدالعزيز سالم المغرب الكبير ج 2 ص 216
- (19) عبدالعزيز فيلاي حول الفتح العربي الاسلامي لمدينة قسنطينة ص 67-71
- (20) المالكي المصدر السابق, ص 21 ابن عذاري البيان ج 1 ص 28 الواقدي المصدر السابق ص 115
- (21) لم نقف على معلومات حول حياة سيدي غانم الامام.
- (22) الواقدي المصدر السابق, ص 215-220 المالكي المصدر السابق ص 21 ابن عذاري البيان ج 1 ص 28 ابن ثغري برديالنجوم ج 1 ص 152.
- (23) انظر: 167-169
- Cambuzat (PL):L avolution des cites du Tell en Ifriky PP
- (24) المالكيالمصدر السابق ص 21 ابن عذاري البيان ج 1 ص 28 عبدالعزيز سالم المغرب الكبير ج 2 ص 217 تولى يزيد بن معاوية الخلافة سنة 679/60, و توفي سنة 683/64, و لم يبق في الحكم اكثر من اربع سنوات فقط.
- (25) عبدالعزيز فيلاي المرجع السابق, ص 67 و ما بعدها.
- (26) المالكي المصدر السابق, ص 28 ابن عذاريالبيان, ج 1 ص 84
- (27) حسين مؤنس فتح العرب للمغرب, ص 211 عبدالعزيز سالم المغرب الكبير ج 2 ص 232
- (28) فيلاي لعروق مدينة قسنطينة ص 42 شوقي عطا الجمل اضواء جديدة على تاريخ مدينة قسنطينة ص 83
- 29) Cambuzat (PL):L EAvalution des Cites J T PP:167-168
- 30) IBID T2 PP:167-168
- 31) IBID T2 PP:167-16 33
- (32) عبدالعزيز فيلاي المظاهر الكبرى لعصر الولاية في بلاد المغرب الاندلس, ص 79
- (33) نفسه, ص 55-67

Cambuzat (PL):O P C I T T2P168

IBID T2P168

- (34) عبد العزيز فيلالي المظاهر الكبرى ص 79
 (35) ابن عذاري البيان، ج 1 ص 71 النويري نهاية الارب ص 22، ص 19
 (36) ابن عذاري البيان، ج 1 ص 72
 (37) لدرجيني طبقات المشايخ، ج 1 ص 32 ابو زكريا الورحلاني السير، ص 44
 (38) الرقيق القيرواني تاريخ افريقية و المغرب، ص 187
 (39) نفسه، ص 149-189
 (40) نفسه، ص 195

Cambuzat (PL):O P cit T2 P 168

(41) نفسه، ص 196

Cambuzat (PL):O P cit T2 P 168

(42) نفسه، ص 196 و مايعدها، موسى لقبال المرجع السابق، ص 94

Cambuzat (PL):O P cit T2 P 168

(43) موسى لقبال المرجع السابق، ص 94

Cambuzat (PL):OPCIT T.2.P.168.

- (50) الرقيق القيروان المصدر السابق، ص 203-213
 (51) موسى لقبال المرجع السابق، ص 93
 (52) نفسه، ص 93
 أمر الخليفة الفاطمي، عبيد الله المهدي (909-934/322-296) ببناء مدينة تتاخم الحدود الشرقية لبلاد المغرب الاوسط، لتكون خطا دفاعيا اماميا للدولة فقام ببناء مدينة المسيلة علي بن حمدون الاندلسي سنة 925/313
 (53) اليعقوبي كتاب البلدان، ص 350/351
 (54) موسى لقبال المرجع السابق ص 94
 (55) ابن ثاويت التطواني دولة الرستميين اصحاب تاهرت ص 14 ابن الاثير الكامل ص 369
 ابن خلدون العبر ج 4 ص 429 (طبعة بولاق).

56) Cambuzat (PL): o p cit, T2 P 168

(57) عبدالعزیز سالم المغرب الكبير، ج 2 ص 2 596

(58) فج الاخبار هو المكان الذى نزل فيه ابو عبدالله الشيعي في بداية دعوته , و لعله مكان كان يلتقي فيه خيار الناس و هم الطلبة و العلماء و الحجاج القادمين من الاندلس و المغربيين الاقصى و الاوسط نحو البقاع المقدسة و بلاد المشرق و العودة منهما, و يبدو ان عبدالله اختار هذا المكان (فج الاخبار) حتى يتمكن من بث دعوته و نشرها عبر بلاد المغرب و الاندلس بواسطة رواد هذا المكان و ربما يكون فج مزالة كما ذهب اليه بعض الباحثين.

(59) بنو سكتان قبيلة من قبائل كتامة المؤيدين لابي عبدالله الشيعي يقع موطنها بالقرب من مدينة ميلة و لا يبعد عنها كثيرا.

(60) القاضي النعمان افتتاح الدعوة ص 75

(61) قام ابو عبدالله ببناء قصر له في مدينة نازروت و جعله مقرا له, و الحقيقة لا نعرف اين تقع هذه المدينة, و هل هي تاغروت التى تقع في ولاية البرج حاليا? و الظاهر انها تقع في بلاد كتامة و لا تبعد كثيرا عن مدينة ميلة قلب كتامة.

(62) القاضي النعمان المصدر السابق, ص 94

(63) نفسه, ص 94

(64) نفسه, ص 109

(65) نفسه, ص 109

(66) نفسه, ص 118, و كان على راس الدين عادوا الى مدينة ميلة ابن نوح من الطاية, و فرج بن جبران, و يوسف بن محمد و وزرة بن نصر و هم من وجوه كتامة و اعيانها.

(67) القاضي النعمان المصدر السابق, ص 118

68) Cambuzat (PL):O P cit T2 P 169

(69) ابن الاثير الكامل ج 5, ص 6 لويس ارشبالقوى البحرية و التجارية, ص 21

70) Vasilev (A A):History of Me Byzantine trans BY Mre Ragasin s.vol 1 Madison 1928.P.372.

(71) ابن خلدون العبر, ج 4 ص 436 محمود اسماعيل الاغالبه, ص 136

72) Cambuzat (PL): opcit T2 P 169 note N 2

(73) القاضي النعمان المصدر السابق, ص 135

(74) نفسه, ص 135

(75) و حول مقاومة فقهاء السنة للشيعة انظر الدباغ معالم الايمان, ج 3 ص 34-35
احمد مختار العبادي دراسات, ص 60-70 عبدالعزيز فيلالي العلاقات, ص 135-137

Dozy: Supplement T 1 P.269

(76) القاضي النعمان المصدر السابق, ص 135 و كان موسى بن عباس صاحب ميله, يقاتل الشيعة رفقة فحل بن نوح و فرج بن جيران, و يوسف بن محمد و وزرة بن نصر, و من كان يسانداهم من اهل كتامة.

(77) القاضي النعمان المصدر السابق, ص 135

(78) نفسه, ص 135

Cambuzat (PL): opcit T2 P 169

(79) نفسه, ص 135

(80) نفسه, ص 135

(81) نفسه, ص 138.

(81) القاضي النعمان المصدر السابق, ص 138

(82) ابن عذاري البيان, ج 1 ص 180

(82) القاضي النعمان المصدر السابق, ص 139

(83) و هو مكان غير بعيد عن مدينة ميله.

(84) القاضي النعمان المصدر السابق, ص 139

(85) نفسه, ص 140

(86) نفسه, ص 155

(87) نفسه, ص 157.

(88) نفسه, ص 157

(89) نفسه, ص 158

(90) نفسه, ص 158

(91) نفسه, ص 158 يبدو ان الرقم المذكور مبالغ فيه, لان المصدر الذي ذكره مصدرا شيعيا.

(92) ابن عذاري البيان, ج 1 ص 233 القاضي النعمان المصدر السابق ص 173

(93) ابن عذاري البيان, حاص 233 و يسميه صاحب افتتاح الدعوة

(94) القاضي النعمان المصدر السابق, ص 173

(95) نفسه, ص 173

Cambuzat (PL):opcit P170

(96) و حول الحوار الذي دار بين شيوخ كتام، و الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، انظر المقرئزي
اتعاض الحنفاء باخبار الائمة الفاطميين الخلفاء، ص 99 موسى لقبال المعز لدين الله الفاطمي، و
جيل جديد من كتامة، ص 41 عبدالعزيز فيلالي العلاقات، ص 189/188 فيلالي لعروق مدينة
قسنطينة، ص 51

Louis Piesse:ITineraire de l'Algerie P 398

(97)البكري المغرب، ص 64 الحميري الروض المعطار، ص 568

(98) البكري المغرب، ص 64 الحميري الروض المعطار، ص 568

99) Cambuzat (PL):o p cit T2 P 170.

100) IBID T2 P 171

(101) انظر الحميري الروض المعطار، ص 569

IBID T2 P 171

102) IBID T2 P 171

(103) ابن خلدون ص 325/324

(104) عبدالعزيز سالم المغرب الكبير ص 684

(105) ابن خلدون العبر ج 6 ص 491/490

(106) كتاب المغرب، ص 64

(107) كتاب نزهة المشتاق، ص 121

(108) كتاب الاستبصار، ص 166

(109) ابن خلدون العبر ج 6 ص 490

(110) نفسه، ج 6 ص 336

(111) اخبار المهدي بن تومرت، ص 35 رشيد بورويبة ابن تومرت، ص 39

(112) مجموعة من الاساتذة الجزائري في التاريخ، ص 312

(113) ابن خلدون العبر ج 6 ص 333/332

(114) برنشفيك تاريخ افريقية، ج 1 ص 320

(115) ابن خلدون العبر ج 6 ص 714/713

(116) نفسه، ج 6 ص 740/739

(117) بن الحاج النميري فيض العباب، ص 52

- (118) العروسي محمد السلطنة الحفصية, ص 445
(119) ابو حموا العبد الوادي واسطة السلوك, ص 14 يحي بن خلدون بغية الرواد, ج 2, ص 21
(120) نفسه, ص 14 و مابعدھا.
(121) العروس محمد : السلطنة الحفصية , ص 627
(122) وصف إفريقيا , ح 1 ص 60